الإلحاد ووهم رد الدِّين: قراءة نقديّة لأبرز القضايا الإلحاديّة المعاصرة

د. حاتم كريم الجياشي

باحث عراقي وأستاذ الفلسفة الإسلاميّة، جامعة أهل البيت العالميَّة- إيران

ملخّص

إنَّ الإلحاد المناقش هنا يمثل مرحلة متأخرة ضمت بين جنبيها الكثير من الأطياف بخلاف الإلحاد السابق لهذا قام الباحث بإيضاح الاختلالات العقليّة والمنطقيَّة التي تخبَّط فيها أتباع هذه التيارات بما فيها التيار الرُّبوبيّ الذي يعدّ أحد أخطر أصناف الإلحاد الجديد لأنَّه جعل من نفسه وسيطاً بين الدِّين والإلحاد. وكذلك قام بالتعريف بهذا النوع من الإلحاد بطريقة تتناسب مع حجم هذه الدراسة لإطلاع القارئ الكريم على أساس ومنطلقات هذا الإلحاد التي اتّخذتها التيارات المنتمية له منطلقات لمذاهبها وافكارها، وتبيين المنهج المتبع عندهم، وكذا توضيح التصور الرُّبوبيّ حول الإله, وبعد ذلك تمَّ نقد الأدلة على نحوٍ جامع لأغلب تياراته التي جاؤوا بها لتعضيد فكرهم ومذهبهم المعرفيّ، وهذه الأمور وغيرها سوف تجدها أيها القارئ في طيات البحث هناك.

الكلمات المفتاحية:

المذهب الرُّبوبيّ، الدِّين الطبيعيّ، الحسُّ، الإلحاد، إنكار الأنبياء.

المقدمة

إنَّ الإلحاد المعاصر اليوم أصبح يمثل أطياف عديدة والوان شتى بعكس الإلحاد السابق لكونــه كان متصفــاً بطائفة واحدة تنطلق مــن مرجعية محددة بالفكــر الماركسي، مع هذا تبقى اصولــه ضاربة في أعماق التاريخ. لا كما يتصور البعض بأنَّ الإلحاد هو نتاج التنوير الأوربي؛ لأنَّه ظهر في القرون الأوْلى كالقرن الثاني والثالث الهجري، على يد ابن الرواندي الذي كان معتــزلاً فألحد خلال العــصر العباسي، وكذا ابن المقفــع صاحب كتاب كليله ودمنة، والأوَّل انتقد القرآن وعمل على ابطال النبوَّة في كتابه الدامغ، فمن هذا يتضح جذور ومنشــأ الإلحاد التي كلها تصب في تعليق وربط لهذا الكائن البشريَّة بالجانب المادِّيّ، أو الجانــب الخاص بذاته أي الإنســان، أو الاقتصاد، وإنْ كان إلحادهــم في البدء عبارة عن مجرَّد اعتراضات وتشــكيكات في أصالة الدِّين ومنشــأه، إلاّ أنَّه بعد ذلك وصل بهم الأمر الى التطرق الى جدواه، ومن ثم أفصحوا عن رفضهم الصريح لأسس الفكر الدِّينيّ وأركانه، ليــس هذا فقط بل اعتبروه وبالاً على الإنســان وحياته، لهذا وجَّهــوا النقد إلى بُنيانه وإثارة الشكوك حول حقيقته، وهذه التيارات ما زالت تتشكل ناقمة على الدِّين واركانه مما أدى بهم لإنكار وجود الله تعالى، وإنكار النبوّات والرسالات والكتب المقدسة، لكونهم يهدفون إلى تقويض الدِّين وإخفاء معالمه. ولم تكتف هذه التيارات الإلحاديّة بذلك وإنَّما أخذت تكيل للإيمان والتعبد بهذه الأديان كل قبيح ورذيلة، بل زادوا على ذلك بزعمهم إنَّ الالتزام بهذا الدِّين مآله فســاد الإنسان والأضرار بحياته؛ وكل هذه الخطوات منهم كان الغرض منها هو امحاء الدِّيــن وأركانه، والعمل على محاربته. فمن هذه المنطلقات يذهبون إلى أنَّ الأديان ليس إلاّ خرافات وأساطير نشأت نتيجة لمخاوف الإنسان البدائيِّ من الفيضانات والكوارث التي تحدث في الأرض، أو بســبب جهله بأسرار الطبيعــة، أو الخوف من الأرواح الميتة،

أو إنَّهـا مناقضة للعقل والعلم، فحـين الالتزام بها تُدخل العقـل في متاهات واضطرابات لا حدود لهـا، فالأخير يعدُّ أحد أخطر أصناف الإلحاد الجديـد وهذه الخطورة تكمن في تسـويق نفسه كوسطية بين الدِّين والإلحاد، فهنا الباحث سيعمل على إيضاح الاختلالات العقليّةوالمنطقيَّة التي تخبط فيها اتباع هذا التيار المسـمى بالتيار الرُّبوبيّ. لدرجة اعتبروا الإيمـان بخالق لهذا الكون ما هو إلاّ خرافة وأسـطورة لا يقوم عليها دليل ولا برهان. وكذا النبوَّة والوحي أُعتبرا مناقضين للعقل وقوانينه. فيمكن لنا بلورة هذه التيارات وترجمتها بثلاثة أنـواع: الأوَّل: الباحث قام بالتعريف بهذا الفكـر واطلاع القارئ الكريم على الدوافع التي دفعت أتباع هذا التيار على اتِّخاذه مذهباً وفكراً بعدما أوضح كنه هذا الفكر كونه أحد صنوف الإلحـاد المعاصر، وكذا تبيين المصادر المعرفيّة التي يعتمدهـا في بناء منظومته الفكريَّة، بعبارة أخرى تبيين المنهج المتبع عندهم، و توضيح رؤية الرُّبوبيّ وتصوره حول الإله أيضًا, وبعد ذلك نقد الأدلة التي جاؤوا بهـا لتعضيد افكارهم ومذهبهم المعرفيّ. والثاني: الذي لا يؤمنون بوجود خالق للكون، ويجزمون بأنَّ الكون لم يحدث بخلق خالق أو فعل فاعل، لهـذا يعتقدون إنَّ الله تعالى لا وجود له، أي خلوا الكون من موجد له. والثالث: هو الذي لم يصـل اتباعه إلى درجة اليقين بوجود خالق لهذا الكون، وفي نفس الوقت يصنفوا بأنَّهم منكرين لوجود الخالق لكن ليس الإنكار التام له وإنَّما وضعهم في دائرة الشك والتردد في إنكارهم للخالق، وهذا ما يسمّى بالتيار الشكيّ. ويوجد تيارات أخرى لا تخرج عن محتوى ومضمون التيارات الثلاثة المتقدمة كاللاأدريّ والعلماني، والجامع بين هذه التيارات كلها هو موقفهم الرافض والمعادي للأديان وما تحويه من أسس ومرتكزات. وهذا الموقف منهم مبتني على أصول ومبتنيات يعدُّونها مؤثرة لدرجة الاعتماد عليها في رفض الدِّين ومبتنياته من مرتكزات وأسـس، وهذا ما سـوف نجيب عنه في ردّنا ونقديّنا لأبرز القضايا الإلحاديّة المعاصرة هنا. فهذه الدراسـة جاءت لتسـليط الضوء على الإلحاد والتعريف به من زاوية الدوافع والأسس والمرتكزات له، وكذا التعرّف على أهمِّ تياراته، وبعدها يتمّ إطلاع القارئ الكريم على أسلوب النقد لأهمِّ أفكارهم وأراهم الإلحاديّة، وقبل ذلك الأجدر والحريُّ بنا قبل أنْ نبين المفاهيم التصورية لهذه الدراسة أنْ نعرض لمشكلة البحث، وأهدافه، وحدوده والمنهج المتبع فيه، وإجراءات الدراسة:

■ أولاً: التعريف بالإلحاد وما يرتبط به:

1. تعريف الإلحاد لغة:

الإلحـاد جاء من اللحد، وهذا هو ما ذهب إليه الفراهيدي بقوله: اللحد: «ما حفر في عرض القبر، وقبر ملحد... والرجل يلتحد إلى الشيء: يلجأ إليه ويميل، وألحد إليه ولحد إليه بلسانه أي مـال... وألحد في الحرم، ولا يقال: لحـد، إذا ترك القصد ومال إلى الظلم»، ومنه قول الله تعـالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾: (الحج:25). يعني في الحرم. (الفراهيدي، العين، 3: 182-183).

وإلى المعنى نفسه ذهب ابن فارس بقوله: «لحد: اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل، إذ مال عن طريقة الحق والإيمان». (ابن فارس، مقاييس اللغة، 5: 236). ويوجد معنى آخر لهذه الكلمة جاء على لسان الأزهري بقوله: «الملحدُ: العادل عن الحق المُدخل فيه ما ليس منه». (الأزهري، معاني القراءات، 1: 430). فالواضح مما تقدم أنَّ الإلحاد في اللغة يفهم له معنىً عام يتضمن الميل، والعدول عن الاسـتقامة، وعن الدِّين، لهذا يُستخدم في كل شيءٍ معوجٍّ غير مستقيم ولا يمكن له العدول عن الاعوجاج في المسير والاستقامة.

2. تعريف الإلحاد اصطلاحاً:

قد يُعرف بأنَّه مصطلح يُطلق على كل من أنكر وجود الله, تعالى، ويؤيد ذلك ما ذهب إليه المعجم الفلسـفيّ بقوله: «الإلحاد هو مذهب من ينكرون الألوهية، والملحد غير مؤلِّه، وهذا معنى شائع في تاريخ الفكر الإنساني». (صليبا,د.جميل,مجمع اللغة العربيّة، المعجم الفلسفيّ، 20).

وعُـرِّف عند مجموعة من المفكرين والفلاسـفة بأنَّـه: «إنكار وجود ربٍّ خالـق لهذا الكون، متصرف فيـه، يدبر أمره بعلمه وحكمته، ويجري أحداثه بإرادتـه وقدرته واعتبار الكون أو مادته الأوْلى أزليَّـة، واعتبـار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المـادة وقوانينها واعتبار الحياة من أثر التطوُّر الذاتي للمادة». (القحطاني، كيفيَّة دعوة الملحدين إلى الله, تعالى, في ضوء الكتاب والسـنة، 8). لهذا عرَّفوا الملحد بـ: «المنكِر لوجود الله, تعالى، سواءً لاعتقاده الجازِم، باسـتحالة وجود خالق، أو أنَّ وجودهُ أمرٌ ضعيف الاحتمال جدًا». (عزمي، الإلحاد للمبتدئين،

14). من ذلك يفهم أنَّ معنى الملحد نفسه لا يختلف عن معنى الإلحاد، ومما لا شك فيه في أنَّ الإلحاد أو الملحد المتقدم تعريفهما لا يختلفان في المحتوى والمآل سواءً أكان ضارباً في القديم، أو في الإلحاد الجديد الذي يعدُّ صناعة أوربية بامتياز، وإنْ كان لا يوجد إجماع بينهم ,خصوصاً بين المتأخرين والمعاصرين, على تعريف الإلحاد، ولكنَّهم جميعاً عبَّروا عن الإلحاد بكلمات متشابهة لا يختلف فيها المضمون والمآل وهو نفي الإله أو الخالق لهذا الوجود بما يحوي بل لا يعتقدون لا بوجوده ولا الإيمان به سواءً نفي وجوده أم لا، فالإلحاد وإنْ تعدد من حيث المسمَّيات والاتِّجاهات إلاّ أنَّه لا يخرج عن رفضه للإله أو الشك فيه أو لا أدري، لذلك لا بد من التفرقة بين هذه الأنواع وبين ما يُسمَّى الإلحاد العملي لكون الله، تعالى, غير حاضرٍ في سلوكه وافعاله نتيجة متابعة غرائزه وشهواته، فهذا النوع عندما يوجَّه إليه سؤال عن موقفه منً جود الله تعالى، لأجاب بأنَّه يعتقد بوجوده.

يمكن هنا أنْ يوجَّه نقد إلينا حول كيفيَّة وضع الرُّبوبيّ بكِفة واحدة مع باقي مذاهب الإلحاد مع أنَّهم لا ينكرون وجود الله, تعالى؟ في مقام الجواب نقول: ما هو الفرق بين نفي وجوده وبين غيابه بعد خلق الكون ولا يتدخَّل, وليس له الحق في ذلك ولا يؤمن به ولا بمن جاء منه، فوجود هذا خالق كعدمه فكيف لا يصنفون بالإلحاد الرُّبوبيّ، نعم يمكن أنْ يصنف بالإلحاد أقل وطأة من الإلحاد المتشدِّد بعدم وجود خالق، وهذا ما سنتكلَّم عنه بالتفصيل في مبحث النقد القادم.

يمكن لنا أنْ نقدِّم تعريفاً مقتنصًا من كلِّ ما تقدم للإلحاد جامع لكلِّ مذاهبه، فأقول: الإلحاد مفهومٌ يُطلق ويراد منه الدلالة على كلِّ فئة تصنَّف على الإلحاد سواءً كانت نافية لوجود الله مطلقًا، أم على مؤمنٍ بوجود الله, تعالى, مع الإنكار لكلِّ وحيٍ، أو أمر إلهيٍّ يتعلَّق ببعث وتصديق الأنبياء والرسل, علىٰ نبينا وآله وعليهم صلوات الله وسلامه عليهم , أو الإيمان بالغيبيَّات، أو على من لا يؤمن بوجوده ولا يؤمن بعدمه؛ أي لا يدري. بما أنَّنا تكلَّمنا حول الرُّبوبيّ وتطرَّقنا عنه ببعض شيء ينبغي لنا أنْ نوضح للقارئ معنى هذا اللفظ تبيينًا مختصرًا بغرض رفع الإبهام عنه؛ لهذا نقول:

3. تعريف الرُّبوبيّة لغة:

إنَّها مصدر من رب يرب ربايـة وربوبية وتربيـة، والالفاظ المشتقة من هذا الفعل لفظان

مختصان بالله تعالى، مصدر الرُّبوبيّة لا يطلق إلاَّ على الله, تعالى، وإطلاقه لغيره الرِّباية والتربية. (الأصفهـاني، المفردات، 184). وأمّا ابن فارس فقد ذهـب إلى أنَّ: «الراء والباء أصل يدلّ على معنـى جامع هو إصلاح الشيء والقيام عليه ولزوم ذلك». (ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 2: 381-382). فالمعنى المقتنص من الرُّبوبيّ هو توليِّ الله, تعالى, خلقه بالتربية، يخلقهم ويصلح معاشهم, ويقدر لهم أقدارهم, ويقضي في مآلهم ويدبر شانهم.

4. تعريف الرُّبوبيّة اصطلاحاً:

على مسـتوى الاصطـلاح هنا يوجد أكثر من تعريـف قُدم للربوبية, لكن نحن سـوف نقتصر على أهـمِّ التعاريف وأولاها، وهو تعريف بدوي الذي يقول: «إنَّ الرُّبوبيّة مذهب فكريٌّ لاديني وفلسـفة تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون، وأنَّ هذه الحقيقة يمكن الوصول لها باستعمال العقـل ومراقبة العـالم الطبيعيّ وحده دون الحاجـة إلى أيِّ دين». (بـدوي، تاريخ الإلحاد في الإسـلام، 183-186). فالبيِّن من هذا التعريف أو التعاريف الأخرى التي أغمضنا النظر عنها أنَّ هذا المذهب يذهب إلى الاعتقاد بالدِّين الطبيعة لا الدِّين الذي قيامه الوحي، فإنَّه يرفض التدخُّل الإلهي في الكون والوجود فضلاً عن التدخل في حياة الانسان وشؤونه، وبهذا التوجُّه انسلخ هذا المذهب عن باقي الديانات من اليهوديَّة ، والمسـيحيَّة ، والإسـلام، لكون هذه الديانات تعتمد في الأساس على فكرة الوحي ومعجزات الأنبياء، وهؤلاء أصحاب المذهب الإلحاديّ منشؤهم رفض الوحي والنبوات ومن ثَمَّ رفض المعجزات المترتِّبة على بعث الانبياء من جهة واجتمعوا مع الإلحاد المتشـدِّد الناكر وجود الله من رأس من جهة أخرى، فإنَّهم مع ذلك لا يصحُّ جعلهم في خانـة باقي أنواع الإلحاد كالرُّبوبيّ؛ لأنَّهم لا يُنكرون وجود خالق لهذا الكون مع كونهم جرَّدوا الله, تعالى, من كلِّ قدرة وتدبير لشؤون الكون والإنسان.

■ ثانياً: التعرّض لنقد أبرز القضايا الإلحاديّة:

1. تأكيد إنكار وجود خالق بمعيّة، الحسِّ، والمادة، والعلم:

هـذا التيار جاء عن منطلق ينكـر ويجزم بعدم وجود خالق لهذا الكـون والوجود، ونفي كلِّ ما

يترتَّب على وجوده, تعالى, من وحيٍ وإرسال أنبياء ورسل، ومآل ذلك عدم التديُّن بدين، وهذا هو المفهوم الحديث للإلحاد، وإنْ كانَ يوجد بعض من يمارس الطقوس الدِّينيّة, ويؤمن ببعض الأمور الماورائيَّة ما يسمّى بالمغيبَّات، لكنهم لا يؤمنون بوجود الإله كأمر عقديٍّ له كالبوذيَّة؛ لأنَّها تديَّنت بغرض الحصول على الحكمة والسعادة والكمال البشريِّ على حسب تصورهم. من هذا يفهم أنَّ البوذيَّة لم تتخذ الدِّين كطريق يوصلهم للغاية المتوخَّاة، وإنَّما اتخذت سلوكاً لتصل به لمقصدها. فتسميته من قبل الباحثين والكتاب بالطقوس الدِّينيّة تسامحاً، وجرينا معهم إنَّما جاء بالسير معهم، ولكن قصدنا هو السلوك لهذا بينا حجم التسامح من قبلهم في إطلاق لفظ الدِّين على السلوك. فهذا النوع من الإلحاد وإنْ كانت جذوره ضاربة بعمق التاريخ إلاّ أنَّ الإلحاد المعاصر أخذ بالانتشار والتوسع بأشكال مختلفة ومسارات متعددة، لكن روحها ومضمونها واحد، مع الإعلان الصّريح عنه بلا خوفٍ أو وجل على عكس بدايات الإلحاد في سلم التاريخ، وخير شاهد على ذلك بروز كثير من المؤلفات والكتب في إنكار الإله ونفيه ، ككتاب (وهم الإله) للبيولوجي ريتشارد دوكينز الذي يمثل الكتاب الأشهر لظاهرة الإلحاد المعاصرة، فإنَّ مؤلفه يعدُّ وجود الله وهماً ليس إلاّ، انطلاقاً من قول روبرت بيرسيق: «حين يعاني شخص واحد من الوهم فإنَّه يُسمّى جنوناً، وحين يعاني الكثيرون من الوهم فإنَّه يسمّى ديناً»: (دوكينز، وهم الإله، 5). وكتاب كسر السحر الدِّين كظاهرة طبيعية للفيلسوف الأمريكي دانييل دينت، الذي سعى فيه لترسيخ القناعة بأنَّ الظاهرة الدِّينيّة قابلة للدراسة في مجال العلوم الطبيعيّة التَّجريبيّة وأنَّها لا تخرج عن قبضتها، أي يفسر ظاهرة الدِّين تفسيراً ماديًّا داروينيًّا في حياة الإنسان، وكتاب الله الفريضة الفاشلة، للفيزيائي فكتور ستنجر، وكتاب الله ليس عظيماً.. كيف يسمم الدِّين كل شيء، للصحفي كريستوفر هيتشنز، هذه أهم الكتب التي شكلت المرتكز والقاعدة لظاهرة الإلحاد المعاصر التي عملت على التجرّؤ على الله, تعالى, في إنكار وجوده والعمل على الحط من الدِّين وقيمته ليربطوا كافة الشرور به، بزعمهم أنَّ الدِّين مصدر العنف واللاعقلانيَّة واللاتسامح، والقبلية والتعصب الأعمى، والجهل، ومحاربة الحرِّيَّة، واحتقار المرأة، وقهر الأطفال وغيرها من الأمور. مع أنَّهم لم يتوقَّفوا عن إنتاج الكتب بطبيعة الحال، ولكنَّهم لم يتوقَّف الأمر على هذه الأسماء مع أنَّهم يمثِّلون الأسس والمرتكزات لهذه الظاهرة، إلاّ أنَّهم تجاوزوهم بأسماء جديدة، لرفد هذه الظاهرة التي تبناها الكثير من التيارات والشخصيات في الغرب وتثبيتها وترسيخها. (عوض، تاريخ الإلحاد في الغرب، 136).

فالفكرة المتبلورة هنا هي إرجاع كلِّ الظواهر الطبيعيّة إلى الأسباب المادِّيّة من دون الحاجة إلى أسباب أخرى غير مادِّيّة، وإثبات أنَّ النظام الجاري في الكون ليس نتيجة خطة وتدبير إلهيٍّ، وإنَّما نظامه ناشـئ من طبيعة الأشـياء المادِّيّة ليس غير، وكل هؤلاء حاولوا أنْ ينقدوا الأدلّة والبراهين العقليّة التي أقامها المفكِّرون والفلاسـفة الموحدون على إثبـات وجود الخالق, تعالى، وركيزة أسـانيدهم في ذلك النظريَّات العلميَّة ليجعلوا إنكارهـم لوجود الخالق مبرَّراً، وهجومهم على الدِّين بكونه لا يخلو من العيوب والشوائب وغير متماسك في متبنَّياته وأصوله.

النقـد: إنَّ هذا النوع من الإلحاد بُني على مجموعة مـن الركائز في إثباته، فحينما نرجع إليها نجدها لا تمُثِّل في التبنِّي جميع الملحدين، وكذا نجد من تبنِّي هذه الركائز والأسـباب ليس من المختصِّين في النظريَّات العلميَّة التي اسـتندوا إليها في إلحادهم كفيزياء الكمِّ، أو فلسفة العلم مثلاً، فهذا يعني أنَّهم تابعون في إلحادهم لأشخاص يثقون بهم، من غير معرفة ودراية تخصُّصيَّة لفحص أقوال هؤلاء التي ركنوا لها نتيجة ثقتهم بهم، لكي يتحققوا منها في معرفة الصائب وغير الصائب منها، وأمّا اعتبار النواقص والفسـاد والشرور الموجودة دليل على عدم وجوده تعالى، وإلاّ لو كان موجوداً لما حدثت هذه الأمور كما هو المفروض، وبطبيعة الحال هذا التوجُّه ناتج عـن أنَّ الكون والوجـود عالم ناقص ممتلئ بكلِّ الشرور والفسـاد، وعندها يكون هذا الوجود والكـون ليس معلولاً لوجود إله؛ لأنَّه لوكان أوجده لكان كاملاً لا نقص ولا فسـاد فيه، فما دام ناقصاً إذاً ليس معلـولاً لإله كما يذهب إليه أصحاب الديانات، وأمّـا النظريَّات التي جاؤوا بها لتأكيـد أنْ لا وجـود للخالق تعالى وإرجاع الوجـود والكون للمادة والجانب المـادِّيّ الواقعيِّ وإنـكاره كل ما وراء المادة ولا تعتبر له وجوداً حقيقيّـاً، كنظريَّة تجرد الإله عن الصفات المادِّيّة كالجسـميّة والمكانيّة والزمانيّة والشكليَّة، فعند تجرده عن الجسم والمكان والزمان والشكل لا يكون خالقـاً؛ لأنَّه تجرَّد عن هذه الصفات, وعندها لا يكون للفظه أيُّ معنى، سـوى العدم ولا شيء لفقده ما تقدم من صفات، وهذا يرجع لنكتة بأنَّ لا يمكن تصور شيءٍ هو فاقد للتصور؛ لأنَّه خالياً من كل ما يمكن أنْ يتصور به كالصفات المتقدِّمة، وعندها يكون لا معنى ولا شيء يُذكر.

إنَّ ما سـاقوه في إنكارهم لوجود الإله أو الخالق، مما حـدا بهؤلاء أنْ يقيموا بكل ما أوتوا من قـوة في النقد والنقمة على الدِّين في كل محطات التاريخ، وهذا ما أوضحه لينين بقوله: «ينبغي علينـا أنْ نحارب الدِّين، هذا هو ألف باء كل مادِّيّة». (فورث، مدخل إلى المادِّيّة الجدليَّة، 29).

هذا التوجُّه والتبنِّي في الإنكار-بكل أشكاله وتيَّاراته-للإله وتبنِّي النظريَّات العلميَّة لنفيه سبحانه، وهــذا ما تبنَّاه كثير من المفكِّرين والعلماء الغربيّين الذي عملــوا على تحدِّي الوحي وما أتى به إلحادهم والعقلانيَّة المدَّعاة مــن قبلهم في ذهابهم إلى كون الطبيعة ليس مخلوقة ولا مصنوعة لإله. إنَّ كل ماجاؤوا به مردود لاعتمادهم على مصدر وحيد وهو الحسُّ وحصر مصادر المعرفة فيه وهذه الدعوى لا تعدوا كونها دعوى وقبولها لا بد من دليل يثبتها ومدعاهم هذا لا يتعدَّى إمّا يكون مستندهم بديهيّة ضروريّة فإذا كان هو هذا فإنَّهم قد ناقضوا أنفسهم؛ لأنَّ القضايا البديهيّة الضروريّة لا يمكن أنْ يدل عليه الحسُّ والتجربة، وإمّا أنْ يكون دليلهم النظر والاستدلال وهذا لا يتعدَّى إمّا أنْ يكون بالعقل وهذا مناقض لمســتندهم وهو الحــس الذي حصروا به المعرفة، وإمّــا أنْ يكون الحس وهذا يجعلهــم يقعون بخلل منهجيٍّ قبيح وهو الاســتدلال بالشيء على نفسه، حتى اعتمادهم على التجربة لا ينفعهم في توصلهم لما يريدون الوصول إليه، لأنَّها توصل بالاعتماد على تكرّر المشاهدات والقياس الخفيّ الموصل للتلازم بين الأثر والمؤثّر من خلال المشــاهدات المتكرِّرة لا يكون اتّفاقيّاً؛ الذي لا يكون أكثريّاً ولا دائميّاً، والتلازم المذكور يرجع لعلَّــةٍ واقعيَّة، وإنْ كان لا نعرف هويَّتها، فالتجربة بنفســها ليس بحجة إلا بمــا قلناه وهذا معناه توجد مصادر أخرى غير ما ذهبوا إليه، مع أنَّهم اختزلوا طبيعة المعرفة الإنســانيَّة التي يســتحيل اختزالها بمصدر واحد، لأنَّ ما يعلمه الإنسان مختلف في طبيعته، فمرة يتعلق بالأمور الوجوديَّة الواقعيَّــة، ومرة يتعلق بالقيم والأخــلاق والمبادئ، ومرة يتعلق بالأمور الغائبة عنه ســواءً كانت مستقبلاً أو ماضياً. وهذا الاختلاف بطبيعة الإنسان لكونه ليس مجرَّداً مرآة عاكسة للواقع، وإنَّما هذا الإنســان يقوم بعمليات شــتّى من تحليلٍ وتفكيكٍ وتركيبٍ واستنباطٍ وحكمٍ، بالإضافة إلى المراجعة والتدقيق والتعديل والترجيح وغيرها من الأمور، وكلّ هذه الأمور ليســت أمور حسيَّة محضة، لأنَّها مختلفة بطبيعتها؛ لذلك يســتحيل الاعتماد على مصدريَّة الحسِّ فقط، باعتبار أنَّ الحــسَّ لا ينقل إلاّ معرفة وأفكار متناثــرة ومبعثرة ومنفصلة بعضها عن بعــض، فإذا لم يكن إلاّ الحسُّ لما أمكن الإنســان تركيبها أي مدركاته الحســيَّة ليخرج بمعرفة دقيقة ومنسجمة ومتَّسقة، بالإضافــة إلى أنَّ وظيفة الحسِّ هي الإدراك المجرَّد ولا يتعلــق بأنَّها صائبة أو خاطئة، لأنَّ هذا ليــس عمله وإنَّما عمل العقل، والمعرفة الحاصلة ليس عــلى طراز واحد، فمنها ما هو ضروريٌّ يرجع إلى البداهة, ومنها ما هو ضروري يرجع إلى النظر والاســتدلال، ومنها ما هو لا يُعرف إلا

بالنصِّ، لذلك اعتمادهم على إمكان خلق هذا الوجود من نفسه أو من لا شيء أو العدم، لا يمكن قبوله لمناقضتهِ لبديهيّات العقل النظريِّ ومرتكزات الفطرة السليمة، كاجتماع النقيضين الذي لا يمكن اجتماعهم، والقول بالخلق من لا شيء أو من العدم، قول بإمكان اجتماع النقيضين، الذي لا يقــول به عاقل، لهذا لا يقبل قول الملحدين الذين ذهبوا إلى أنَّ الوجود لم يخلقه خالق، وأنَّ الوجود خلق نفســه من العدم، كما في قول برتراند راســل: (« إنَّ العالم تكون تلقائيّاً ولم يخلقه خالق». (راســل، النظرة العلميَّة، 108). أو قول ستيفن هوكينج: «إنَّ الكون خلق نفسه من العدم بفضل قوانينه».(شريــف، خرافة الإلحاد، 361). فهو هنا لم يكتف بهذا القدر-وإنْ تكلَّمنا عنه في طيَّات كلامنا المتقدِّم حــول قانون العليّة-بل ذهبوا إلى إنكار قانون العليّة، بحجة أنَّ غاية ما يعطيــه الترابط الموجود بين الظواهر هو التقارب والعلاقة بين أمرين ليس إلاّ، ولا يكشــف هذا الترابط عن قانونٍ واقعيٍّ جارٍ بين العالم والموجودات يُسمّى بقانون العليّة، وعندهم لا يثبت إلاّ عن طريق الدليل الحسيِّ والحال لا يوجد لديهم دليلٌ حسيٌّ على ذلك، لهذا ذهبوا إلى أنَّ وجود الخالق ليس بأولى من عدمه، فهذه الأمور هي التي ســارة بهم إلى إنكار وجود الخالق، وهذا ما قالوه كبراهم كراسل حيث يقول: «فهل لنا أنْ نستنتج من ذلك أنَّ العالم من صنع خالق؟ الجواب كلاّ، إذا استمسكنا بقوانين الاستنتاجات العلميَّة، ونحن لا نجد مبرّراً لرفض فكرة أنَّ الكون بدأ تلقائيّاً...إنَّ اســتنتاج خالقٍ هو استنتاج علّة، ولا يُسلّم بالاســتنتاجات العلّيّة في العلم إلاّ حين تبدأ من قوانين علّيّة محسوسة، والخلق من عدمٍ أمرٌ لم يره أحد، وإذن فليس من مبرّرٍ للظنّ بأنَّ العالم من صنع خالقٍ يرجّح ما يبرِّره الظنّ بأنّه غير ذي علّة، فهما يتعارضان على ســواءٍ بقوانين العلّيّة الّتي نستطيع مشاهداتها». (راسل، النظرة العلميَّة، 108). فإنَّ إنكارهم لهذا القانون الخالق لا يدخل في شــموله للموجود في هذا الوجود، لكونه يعدُّ موجوداً بالذات أو ما يسمّى بواجب الوجــود، لأنَّه يخالف بديهيّة العقــل كما قلنا في الرد على الخلق من العــدم أو لا شيء لامتناع اجتــماع النقيضين، ولا يمكن لأحد أنْ ينقــض بأنَّهم لا يؤمنون بهذه البديهــة، لكونهم يؤمنون بالعلم والتعلم وإنكارهم يدل على عدم العلم أو عبثيَّته، والحال كونهم لا يلتزمون بذلك، ويؤيد ذلك مقدار الجهود التي بذلوها في ميادين الفيزياء والكيمياء والأحياء لمعرفة أســباب الأشياء، وعندهــا يعمّمون الأحكام لغيرها التي لم تقع في دائرة تجربتهم، وهذا معناه قد وثقوا بســيرهم على القانون الذي عملوا على محاربته، (خان، الإسلام يتحدَّى،47). وإلا كيف طبقوا قوانينهم

التي حصلوا عليها على الميادين التـي لم يجربوا بها؟! وهذا القانون لا يكون إلاّ مفهوماً عقليّاً يكشف بإدراكه عن الارتباط بين شيئين واقعيَّين، فالمعطي صفة الارتباط هو العقل وهو الكاشف عن وجود العلة والمعلول والسبب والمسبب والأثر والمؤثر بين الموجودات. فعندما تمَّ تضييق الطريق عليهم علميّاً بحسب توجههم باتّباع النظريَّات العلميَّة في ذلك، حاكوا مغالطة من زاوية قانون السـببيّة أو العليّة وهي لو قلنا بهذا القانون فلا بدَّ من جريانه على وجود الخالق الذي عُدَّ مبدأ العلم، فعندما يُخضع لهذا القانون لا بد أنْ يكون له سببٍ أوجده، بعدما لم يكن، وإذا كان هكذا لا يكون إلهاً وإنّما من أوجده يكون إلهاً، وهكذا دواليكً، وعندها لا يكون أولى من نشأة العالم عفويّاً من نفسه، (نجيب محمود، الجبر الذاتي، 265-282). جلب هكذا مغالطة وإدخاله وسط التخلص من المطبات التي اوقعوا أنفسهم فيها، جاء نتيجة سوء فهم لقانون العليّة من قبل منظريهم كراسـل ودوكينز وليس فقط مخالفته، مـما أدَّى بهم إلى رفض وجود الخالق وإنكاره، لأنَّ النظريَّات التي أتوا بها ليوضحوا كيفيَّة نشوء هذا العالم وقفت عاجزة عن تفسير إيجاد نفسه بنفسـه، والنظام الجاري فيه، بسـبب عجز العنصر الذي جعلوه ركيـزة لنظريَّاتهم, وهي المادة التي لم تتغيرَّ إلا بسـبب خارجٍ عنها ليس ماديّاً، يقوم بتغييرها وتحويلها لأمر آخر، لأنَّه لو كانت المادة هي الموجدة لهذا العالم لما انقطع السـؤال عن الموجد المساوق لعدم وجوده ونتيجته هو العدم، على خلاف ما نراه من وجوده ووجود الأشـياء به بما فيها وجودنا الإنساني، وهذا ما عليـه قوانين العقل وأحكامـه التي تذهب إلى حتمية وجود موجودٍ خـارجٍ عن المادة تعود إليه كافة شـؤون العالم وما فيه بما فيها نفس وجود العالم؛ فعند إدخاله تحت قانون هذا العالم لما كان خالقاً للعالم،(الصدر، فلسفتنا، 66-73). فالذي أوقعهم في هذا الفهم السيِّء هو جريان ما لممكن الوجود بنفس قانون السـببيّة المسبَّب عنه على السبب لخروجه من العدميَّة إلى الوجود وإلاّ لما يصح إطلاق السبب عليه، وإنْ كان داخلاً في هذا القانون إلاّ من زاوية السبب والمؤثر والعلّـة، وهذا ما أثبته قانون العقل الذي يحتم أنْ يكون خارجـاً عنه وغير محكوم بقوانينه التي يتغنـى بها الملحدون، وإلاّ لوُجِد العالم من نفسـه أو من العدم وهذا ما أبطلته بديهيَّات العقل، إلى هنا نكتفي بهذا القدر.

تنويه: هنا قد تمَّ تبيين أكثر من مسـألة من مسـائل الإلحاد لكون رجوع الجميع لقضيَّة واحدة وهي قضيَّة إنكار ونفي وجود الخالق، لهذا تمَّ تبيين الجميع في سلَّة واحدة. نعم لم نبيِّن ونوضِّح

مسألة اكتفاء الإنسان بقدراته العلميَّة والإدراكيَّة بإدارة وحاكميَّة نفسه لدرجة عدم الاحتياج لمن يدير أموره وشؤونه، وعندها لا يحتاج لأحدٍ من خارج ذاته الإنسانيَّة، فهذه المسألة تركتها لنتكلَّم عنها في المسألة القادمة التي أفردنا لها بحثاً خاصاً، وإنْ كان ما تقدَّم يشملها ضمنًا.

2. إنكار الوحي الإلهيِّ والنبوَّة وما يتبعها من نظام حياة الإنسان بمعيّة الاستغناء، والشك:

إنّ هذا القضيَّة الإلحاديّة بيَّنها من قبل تيار ركيزته قائمة على مبدأ ينكر الوحي والنبوَّة وما يتبعها من نظام حياة الإنسان على كلا المستويَيْن الفردي والاجتماعيّ، وهذا هو الأساس الذي أقامه عليه المذهب الرُّبوبيّ أركانه، نعم وإنْ كانت هذه الفكرة لها جذور في عمق التاريخ تعود إلى البراهمة في الهند، مما يعني إنَّها ليست من ابتكارات هذا المذهب، الذين تبنوا إنكار الوحي والنبوَّة ودليلهم قول العقل باستحالة ذلك، بحجة ما يأتي به النبيُّ لا يخلو من فرضين لا ثالث لهما، إمّا أنْ يوافق العقل أو يخالفه، فعندما يكون موافقًا للعقل ما أتى به فلا حاجة له، أو يأتي بما يخالف العقل فهنا يجب أنْ يردَّه. وهؤلاء قالوا بذلك تبعاً لرجلٍ منهم يقال له: براهما، (الشهرستاني، الملل والنحل، 2: 251).

ويؤيد ذلك الروايات التي نجدها لدى المؤلفين الإسلاميّين عن البراهمة بحسبانهم منكري النبوَّة إنَّما ترجع إلى كتاب الزمرد لابن الرَّواندي، (بدوي، من تاريخ الإلحاد في الإسلاميّ، 183-185). لكن المتتبِّع لمؤلفات علماء الكلام والمتكلِّمين يجد أنَّ جذور الفكر الرُّبوبيّ الضارب بالقدم في بلدان الشرق متُمثِّلة بالبراهمة، على خلاف بلدان الغرب فإنَّ جذوره ترجع الى العصور المتأخرة. فهذا المذهب قائم على مسألة إنكار فكرة النبوَّة وواسطتها بين الخالق والمخلوق وما يتبعها من شرائع، متخذ من الدواعي والدوافع له ركيزة لإنكارهم، كاتِّخاذهم من اختلاف أهل الأديان في توضيح المراد من قضايا العالم والوجود والمعاد وما يرتبط به من جزئيات ومفاهيم، وكذا اتِّخاذهم مما تقوم به الجماعات المتطرِّفة من قتلٍ وعنف وإجرام باسم الدِّين، مما أدَّى إلى النفور من الدِّين وما يتبعه من شؤون، لدرجةٍ جعلت من الدِّين رسالة مشوَّهة ملأى بالكذب والتزوير والصور البشعة، بالإضافة إلى التخبط في الأقوال والآراء في أروقة الفكر الدِّينيّ، والاضطهاد والشدة الحاصلة تجاه المعارضين لهم، سواءً كانت في الشرق أو الغرب، فضلاً عن اعتبار الدِّين لم يقدم إجابات وحلول لبعض الأسئلة الجوهريَّة المقلقة للبشر ووقف عاجزاً أمامها. وتأسيساً على ما تقدَّم نفهم حجم هذه الاعتراض والامتعاض من

الدِّيــن، لأنَّهم وإنْ كانوا يؤمنون بوجود الإله وأنَّه خالق لهذا الكون إلاّ أنَّهم جردوه من صلاحيَّة التدبير والتدخُّل في شــؤون الكون والبشريَّة، لهذا عملوا على تقديم فكرة الإله بطريقة القوانين الطبيعيّة، من ذلك اعتبروا الدِّين إنتاجًا بشري. ونتيجة لذلك أخذوا يعتمدون على أنفسهم في حلِّ ما يُواجههم من مشكلات وتحقيق أهدافهم في الحياة. ناهيك عن اتِّخاذهم الأخلاق الناتجة عن تحضرهم وتحضر مجتمعهم نتيجة التزامهم الذاتي بالخير وابتعادهم عن الشر، فكل هذا يرجع إلى التخلُّص مــما يترتَّب على أصول الدِّين وفروعه المختلفة والرســالات التوحيديَّة الموصلة إلى الحقيقة.

النقــد: إنَّ هذه المسألة الإلحاديّة المتبنَّاة من قبل أتباعها سواءً أكانت البراهمة أم الرُّبوبيّن غير مبنيَّة على منطلقات وأسس تمكّنهم من الادِّعاء بقيام الأدلّة عليها سواءً كانت أدلّة فطريَّة، أم وجدانيّــة، أو عقليّــة، بل يصعب عليهــم ادِّعاء ذلك نتيجة ما تبنَّوه مــن دوافع ودواعٍ، ليرفع عن نفســه كلَّ تبعات الالتزام والتقيُّد بالدِّين ومقتضياته ومصاعب التلبُّس بها، بينما الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون مع تجريده من كل الصلاحيَّات كالتدبير مثلاً، لا يكلِّفهم شيئًا يُذكر، لذا يذهبون إلى رفض فكرة النبوَّة من أساسها ليجعلوا أنفسهم متحرِّرة من كلِّ التعاليم والقيود والتّبعــات التــي جاءت بها الأنبياء من قبــل الله, تعالى. فهؤلاء قدموا تصــوّراً ناقصاً عن الإله والنبوَّة والدِّين بحسب منهجهم الذي ساروا عليه، الممتلئ بالثغرات، التي لم يستطيعوا سدّها أو ردّمهــا أمــام النقاش العلمــيِّ، فالمفهوم من الإله عندهم لا يُشــعر الإنســان بأنَّه يقف أمام إلــه يمــلأ كامل كيانه من عقلٍ ووجــدانٍ وروحٍ، ولا له القدرة على تقديــم الإجابات عن كلِّ تســاؤلاته، مما أدَّى إلى غموض هذا الإله، إضافة إلى كونه مســلوب الصلاحيَّات, وأنَّه عاجز عــن التصرُّف وإعمال قدرته في الخلــق والكون، وأنَّه لم يحدِّد لهم الهــدف والغاية من خلقه لهم، فضلاً عن عزل نفسه باختياره عن كل التصرُّفات في هذا العالم، وإلاَّ كيف يسكت ويغض الطرف عما يجري في العالم باسمه والشاهد على ذلك التاريخ المتداول الممتلئ بالآلاف من الأنبياء والرســل الداعين له وإنّهم رسله وأنبياؤا جاؤوا حاملين الرسالات والشرائع إلى الخلق مــن قِبله تعالى، ونتيجة لذلك قُسِّــمَ الناس من زاوية الايمان بالأنبياء والرســل، وعدم الايمان بهم، ويفسر ذلك هو ما حدث من إراقة الدماء, وشــنِّ الحروب بسبب الإيمان وعدمه، فإذا لم يكن له, تعالى أنبياء ورســل، وأنَّ ما حدث كله جرى باسمه، فكيف غضَّ الطرف وسكت عما

يجـري ويرضى به مع أنّه بريء من ذلك كله. إضافـة إلى أنَّه ليس بيِّناً ماذا كان هذا الإله الذي يؤمـن بـه الرُّبوبيّ وأتباعه، عالماً بما يفعله ويقوم به خلقـه من أعمال الخير أو الشر. وإذا كان يعلـم مـا يقوم به خلقُه، لكن لا يُعلم موقفه من ذلك؟ هل هـو راض بذلك أو رافض له؟ وإذا كان رافضـاً وغـير راضٍ بأفعال الشر فماذا يترتب على رفضه وعـدم رضاه؟ وكيف يترجم هذا الرفض وعدم الرضا؟ فهذا النوع من الإله لا يقبل به الإنسـان المستقيم المفكر ولا يكون على قناعة بإله مثله غامض من حيث الهويَّة والهدف من خلقه لهذا الكون والإنسـان، مما جعلهم يستشـكلون بعبثيَّة خلق الإنسـان على الأرض، وعدم الحاجة للدين وإرسال الأنبياء والرسل، من هنا دخل أصحاب النزعة الإنسـانيَّة المكتفية بالعقل والمستغنية به على الخط مع الرُّبوبيّ، في أنّ الإنسـان يستطيع بالعقل وحده أنّ يتوصل إلى المعارف، نتيجة ما يحمله من رشد وعلم وإدراك؛ فيكون على كل شيء قديرًا سـواءً على مسـتوى الأسـئلة التي تطرح عليه، أو الأجوبة التـي يقدِّمها، لدرجة أصبح يمثـل المقياس والمعيار في القيم والمبادئ، فعندها يكون هو من له الحق في صياغة حياته وإدارتها كيف يشاء وبما يشاء، وهذا لها أسماء متعددة منها العقلانيَّة ومنها الطبيعة الماديَّة ومنها الاسـتقلاليّة الذاتيَّة ومنها الناسـوتيّة، وكلّ هذه مركزها الإنسان في هـذا الكون. إنَّ الدعـاوى المتقدمة التي أُثيرت في حقِّ الإله وما يرتبط به كإرسـال الأنبياء قد ردَّها القرآن كما في قوله تعالى: ﴿**أفحسبتم أنَّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرجعون**﴾. (المؤمنـون: 115). فالآية توضِّح أنَّ الإنسـان خُلق لأجل هـدف وغاية وحكمة وليس مخلوقاً عبثاً، وأنّ مرجعه في الأخير لا يكون إلاّ إليه تعالى، (ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، 5: 500). والقـرآن الكريم لم يهمـل دعوى المنكرين للأنبياء والرسـل فيما ذهبوا إليه مـن رد بقول الله تعـالى: ﴿**وما قدروا الله حـق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**﴾: (الانعام: 91). فهـذه الآية تبيِّن قدر الله تعالى ورفعته بمـا يحمل من صفات كالرحمة واللُّطف، ومع ذلك لم يعرفـوا هذا القدْر والمكانة له, تعالى, حينما أنكروا بعثة الأنبياء والرسـل والوحيَ إليهم، مع ما يرونه من سخطه تعالى على الكافرين وشدة بطشه بهم، مع ذلك تجرؤوا ولم يخافوا منه تعالى, في إنكارهـم للنبـوة. وهذا كله يرجع إلى الإيمان بالاسـتغناء بمرجعيَّة العقـل في إدارة الكون والحيـاة أنَّ المتتبع لكونهـم لا يقبلون بمرجعية شيء أخرى-كالوحـي والنص-يكون بين الله وخلقه، فالواضح أنَّ هذا العقل المسـتغنى به ليس بالعقل الفطريِّ وإنَّما هو العقل المكتسـب

الخاضــع لعامل الثقافــة والتربية والبيئة المحيطة الملأى بالمتغــيِّرات المختلفة، والدليل على ذلــك لو كان مرادهم من العقــل هو العقل الفطريّ لكان حجَّة بنفســه ودليًال ملزمًا للآخرين؛ لأنَّــه مجمع عليه من ذوي العقول, وليس هو رأيًا انفراديًّا مكتســبًا بالســمع. وهذا الرأي يكون ليس مما يحكم به العقل، بالإضافة إلى أنَّ هذا الاســتغناء ينطلق من أمور مســلَّمة كلُّها باطلة لكون الإيمان بوجود خالق ناقص العلم والسيطرة على الكون يتناقض مع كمال الإنسان ووعيه بحقيقتــه، ومع ذلــك لم يقدِّموا دليلاً على ذلــك فتبقى دعوى بلا دليــل ولا تخرج عن كونها مصادرة على المطلوب، لأنَّ الإيمان بوجود خالق هي قضيَّة فطريَّة ضروريَّة يدلُّ عليها العقل، لكون إيمان الإنسان بالله,, تعالى وتعبده له يمثل الكمال الذي يجب الحرص عليه, وإلاّ يخرج عما فُطر عليه ومناقضاً لما جبل على مقتضاها، إضافة إلى ذلك وإنْ قلنا بامتلاك العقل القدرة الكبــيرة في الإدراك للاكتشــافات العلميَّــة والمعرفيّة، لكن مع هذا يبقــى محدود الإدراك, ولا يصل إلى المعرفة النهائيَّة للكون والوجود والإنســان، وعندها لا تكون له اســتقلاليَّة بالمعرفة وعدم الاحتياج لمن يســدَّ نقصه. فهؤلاء جعلوا القدرة للإنســان على إدارة هذا الكون وتدبيره ، وبذلــك أنزلوا الإنســان منزلة الخالــق المدبِّر والمشرِّع، مما يعني أنهــم جعلوا الأمر عندهم محصــوراً فإمَّا أنْ يكون الخالق هو المدبر والمشرع، وإمَّا أنْ يكون الإنســان المتبلور بالصراع والمنافســة بين الخالق والإنســان، وهذا الأمر مأخوذ من التصوُّر اليونــانيّ الخرافيّ حول هذه المنافسة والصراع، (ديورانت، قصة الحضارة، 6: 188).

إنَّ هــذا الأمــر لا يمكن تصوره إطلاقــاً؛ لأنَّه يتصور فقط بين المتقاربــين في القوة والقدرة، والحــال أنَّه غير متحقــق بين الخالق والإنســان، لأنَّ الخلق خلق هذا الوجــود في غاية الدقة والعظمى والســعة فلا يمكن للإنســان بعقله أنْ يحيط بالكون وذاته ودليل ذلك أنَّ الإنسان لا يصل إلى النهاية في ذلك، فإذا كان هكذا فكيف تصحُّ المقايســة بعقلهم بين الخالق والإنسان المســتغني، وزيادة على ذلــك إنَّ هذه النزعة تمُثِّل انتهاكًا صارخًا لإنســانية هذا الإنســان في قصرهــا على الجانــب المادِّيّ وتغفل الجوانــب الأخرى، كالجانب الأخلاقــيّ القيمي الكليّ الثابت والمبــادئ الضروريّة العقليّة التي منها ضرورة الإيمان بالخالق المشرّع والمدبِّر، وهذه النزعــة أخلت بهذه الجوانب مما حطمة إنســانية الإنســان، ومرجع جميــع ذلك لتخلص من سلطة الإله ومن كل ما يتصل به أمور وأنظمة تشريعية أو أمور غيبيَّة، لذلك أنكروا النبوَّة لكونها

تمُثِّل الإله وتتكلم عنه. ومما لا شـك فيه أنَّ قيمة الإنسـان ليسـت منحـصرة بخلقته الخاصَّة وإنّمـا مترتبة على آثار أخلاقيته ومعرفته وسـلوكيته وهذه لا تكـون إلا بالإيمان بالله تعالى وما يرتبط به، وما يؤيد عجز العقل ومعرفته من الإحاطة بالكون والإنسان هو حاجته لمن يسدّ هذا النقص والاحتياج وهم رسـل خالقهم وأنبياءه، ليشرح مضامين ما جاء به من قبل الله ,تعالى، ويجسـد بحركته تعاليم الرسـالة وهذا ما قام به الأنبياء وهو ما ذهب إليه أينشـتاين بقوله: «إنَّ العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسـمو التفكـير عاجز عن الإحاطة بالكون، فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها، وهي مكتوبة بلغات كثيرة فالطفل يعلن أنَّه لا بد أنْ يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ولكنه لا يعرف من كتبها ولا كيف كانت كتابته لها وهو لا يفهم اللغات التي قد كتبت بها»: (مرحبا، أينشتاين ونظريته النسـبية، 145). كذا نفس الأمر يجري في الشـك وعدم اليقين عند هذا الإنسـان مما يجعله لا يرجح طرفًا على آخر، فينتج ما يسمّى باللاأدريّة المنكرة للمعرفة اليقينيَّة وهذا التوجُّه يعتبر توجُّه حيرة في العقل لدى هذا الإنسان، وهذا المنهج أتعس من سابقه لوجود اضطراب منهجي فيه لدرجة أعجب أصحابه من إقامة الدليل على ما يتبنَّاه، بالإضافة للتناقض فيه؛ لأنَّهم أنكـروا الحقائـق الموجودة بجزمهم بأنَّه لا يمكن العلم بشيء، فـإنَّ نفس هذا التوجُّه يبطل ما ذهبـوا إليه؛ لأنَّ ذلك التوجُّه يسـتلزم وجـود يقين واحد على أقلِّ تقديـر, وهو صدق مذهبهم وبذلـك يقعون في التناقض، إضافة إلى وقوعهم في التناقض السـلوكيِّ، لكونهم لا يمكن أنْ يلتزمـوا بنزعتهم الشـكيَّة في حياتهم، وإنَّمـا يتعاملون فيها باليقين والعلـم، وهذا ما قاله وليم جيمـس: «فـإذا ما تُركوا لغرائزهم وطباعهـم فإنَّهم يعتقدون ويتيقَّنون كما يفعل البابا نفسـه»، (جيمـس، العقل والدِّيـن، 16). فإنَّ هؤلاء يعتمدون على الخطـأ في الحواسّ والاختلاف في الإدراك والخلـط فيما بينها، بالإضافة إلى الفصل بين الحواسّ والحال أنَّ الحواسّ الإنسـانيَّة إحداها تكمل الأخرى في تحصيل المعرفة، فاعتمادهم على حاسـة واحدة للتشـكيك في بقية الحواسّ يعتبر خلل منهجي فلو اسـتخدمنا باقي الحـواسّ لأدركنا الخطأ الذي وقع في إدراك حـسٍ منها. إضافـة إلى خطأ الحواسّ يدل عـلى أنَّهم يعلمون الحقائـق ويثبتونها، لأنَّه لو لم يعرفـوا الحواسّ ولا يعرفوا تناقض قضاياها، وأنَّ تناقضهـا لا يصلح دليل، وأنَّ القضيَّة ما هي وما هو الدليل... فعين ما اسـتدلوا به يعتبر دليل على بطلان مذهبهم، (نجيب، قصة الفلسـفة

الحديثـة،255-261). وهنا قدحوا بالعقل على خلاف الاسـتغناء المتقدم بحجة إنَّ العقل يقع بالخطأ كالحس وهذا مردود؛ لأنَّ الحكم على أخطأ بعض التصورات يسـتلزم بالضرورة وجود تصورات صحيحة وصائبة وإدراك تميزها عن التصورات الخاطئ، ولأجل ذلك صحة الموازنة بين الصواب والخطأ. وأما إشـكاليَّة الشرور التي تنفـي بوجودها الخالق وما يلزم من وجوده، وهذه رافقة الإنسـان في هذا العالم؛ لأنَّها تنطلق من طبيعة الحياة المشوبة بالنقص، مما جعل هذه الإشكاليَّة السبب الرئيسيَّ لظاهرة الإلحاد، لكون الشرِّ غير منسجم مع الصفات المذكورة للـه, تعالى, فيكون الـشر والإيمان بوجود الله متناقضين لا يمكـن الجمع بينهما، وأفضل من حـلَّ هذه الإشـكاليَّة وردَّها هوما قدَّمه أرسـطو مـن تحليل وتبعه في ذلك كثير من الفلاسـفة والمتكلِّمين، ك(ملا صدرا وابن سـينا، وهو تقسـيم الموجودات الممكنة بالقسمة العقليّة إلى أقسـام: منها ما هو خير كلّه لا شَّر فيه أصلاً. ومنها فيه خيرٌ كثير مع شرٍّ قليل. ومنها ما فيه شرٌّ كثير مع خيرٍ قليل. ومنها ما يتساوى فيه الخير والشر. ومنها ما هو شر مطلق لا خير فيه أصلاً. والثلاثة الأخيرة غير موجودة في العالم والموجود فقط الأوَّلين، وهذا ما ترجمته فلسـفة القرآن وبلورتـه بأنواع الشرور المسـماة بالبلاء، فمرة تكـون عامل يقضه وتوبة، ومـرة عامل تكويني لمعاصي المذنب، ومرة عامل امتحان لتكامل الإنسـان، هنا يُطرح سؤال على ما طرحه ارسطو حول لماذا أوجد الله الشر حتى لو كان قليلاً؟ ألم يكن من الأفضل خلو العالم من الشر حتى لـو كان قليلاً؟ في مقام الجواب نقول: ليس من الصحيح المطالبة بخلق عالم خالٍ من الشر؛ لأنَّ الـشر القليـل من اللوازم التي لا تنفك عـن عالم المادة، لكون هذا العـالم عالَم الارتفاع والهبوط والفقدان والوجدان وهكذا دواليك، (الشـيرازي، الحكمة المتعالية، 7: 68-69). كما في الآيـات التالي: ﴿**ولقد أرسـلنا إلى أمم مـن قبلك فأخذناهم بالبأسـاء والضراء لعلهم يتضرعون**﴾: (الأنعام: 42). و﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾: (الشـورى: 30). و﴿**ولَنبلونكم بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجـوعِ۞ ونقصٍ مِنَ الأَموالِ والأَنفسِ والثمراتِ۞ وبشّرِ الصابرينَ**﴾: (البقرة: 155).

وهـذا الشر يمكن معالجته باحتمال حكمة الله وعلمه وقدرته اقتضت وضع بعض المصائب والبلايا، لتعترض طريق حياة الإنسـان الدنيوية، فتكون هذه البلايا والمصائب وسـيلة للوصول إلى الكـمال، إذاً يمكن أنْ يكون الله تعالى قادراً وعالماً ومريداً للخير بشـكل مطلق، حتى مع

وجود الشر في الوجود والكون هذا من جانب، والكثير من مصاديق الشر جاءت نتيجة تكوينية مترتبة على اختيار وإرادة الإنسان لبعض الذنوب والمعاصي، وعلى ذلك لا تنافي بين وجود الله والشر في هذه المصاديق من جانب آخر. فالخطأ في اختيار الإنسان هو مصدر الشر لكونه من لوازم الاختيار، فالمعان بهذه الإشكاليَّة يجدها لا تخرج عما تقدم من مبررات واهي لرفض الخالق أو تحديد سلطته وعلمه والركون للعقل والاستغناء به أو التشكيك؛ لأنَّه التحليل المنطقي للشر لا يخرج عن كون المعتقدات الدِّينيّة لا تستند إلى أساس عقلي محكم، بل يبين إنَّها ليست عقلانية، ومفرداته الأساسيَّة غير منسجمة-ككون الله قادراً وعالماً مطلقاً ومريداً للخير لا ينسجم مع الشر الموجود-إلى درجة لا يمكن قبول بها، إلاّ إذا غض النظر عن العقل ومقتضيات التفكير المنطقي، (مكي، الكلام الفلسفيّ، ج1، ص144). لأنَّ الشر أمر بديهي لا يمكن إنكار وجوده مع هذا لا بد من إنكار وجود إله قادر مطلق، وأفضل حل لذلك هو الإيمان باختيار الإنسان في الشر الأخلاقيّ وفي قسم من الشر الطبيعيّ، وأما باقي حالات الشر الطبيعيّ فلا يد للإنسان بها وإنَّما ترجع للحكمة الإلهيَّة كما بينا أعلاه.

النتائج والتوصيات

من خلال ما تقدم يمكن أن نخرج بالنتائج التالية:

1 - الإله تعالى في هذا الإلحاد لا يشعرك أنَّك تقف أمام إله يملأ العقل والوجدان والروح، ولا له القدرة على الإجابة على كل تساؤلاته ولا يروي ظمئه، فالخلل واضح في فكرهم.

2 - جميع تيارات هذا الإلحاد وقعتْ في مطبَّات مجافاة خالقهم والتنصل من مسؤولياتهم تجاهه جاء نتيجة المبادئ التي سارتْ عليها, فإنها متنافية كل التنافي مع الفطرة والعقل السليم.

3 - إنَّ النبوَّة التي عملوا على إنكارها لا تمُثِّل حاجة جانبية أو هامشية وإنَّما تمُثِّل حاجة بشرية وضرورة عقلية، لكونها لا تتسنى لجميع الناس أنْ يكونوا رسل الله إلى الخلق، باعتبار الوحي الإلهي يحتاج إلى أهليَّة ولياقة خاصَّة, لا تكون في متناول جميع البشر.

4 - إنَّ الله, تعالى, الذي أبدع هذا الكون والخلق العظيم تكون له القدرة على التدخّل والتصرف في شؤونه وليس كما يقول التيار الرُّبوبيّ.

5 - إنَّ النزعة المستغنية بالعقل أوقعت الإنسان في انتهاكات لقيمه وخصائصه، وانحدرت بحياته إلى مزيد من المشكلات والصعوبات والانحرافات المميتة.

6 - إنَّ أصحاب النزعة الحسيَّة الذين حصروا معرفة الإنسان فقط بالحس أوقعوا أنفسهم في مستنقع استحالة إقامة البرهان على توجههم هذا، إضافة الى اختزالهم المعرفة الإنسانيَّة المتعدِّدة المصادر بمصدر واحد، مما جعلهم يقعون في إرباك معرفيٍّ كإبطال الاستدلال المعرفيّ؛ لأنَّ الاستدلال عملية قوامها الترابط والتلازم بين الأمور والتلازم معنىً عقليًّا يُدرك بالحسِّ.

7 - إنَّ التيار الشكيَّ لا يقوم على منهج علمي ومن ثَمَّ لا يحقق لأتباعه الاستقرار والاطمئنان الروحي والعقليّ، وهذا معناه لا أصول ولا مبادئ له مما يجعل الحيرة في العقول والاضطراب والقلق في النفوس نتيجة لإنكاره للمحسوسات والقضايا المعقولة.

8 - اتخاذ مسألة الشرِّ كأساس لرفض وجود الله, تعالى, لكي يتخلصوا من تبعات وجوده تعالى والركون إلى أوامره ليصبحوا في حلٍّ من ذلك، فهؤلاء لو كانوا يعلمون القواعد والمفاهيم- كالعدل الإلهي وعلاقته مع مبدأ الحرِّيَّة والإرادة عند الإنسان إضافة إلى معرفة الميزان في الحسن والقبح هل هو العقل أو الشرع-وسنة البلاء والبلايا والإجابات التي قدَّمها القرآن حول مسألة الشرِّ لما وقعوا في مستنقعه الذي جعلوه مركزًا لإلحادهم.

التوصيات

1 - أنْ يحافظ الباحث على الركيزة الأساسيَّة في دراسة الظاهرة الإلحاديّة كالمنهج والهدف والغاية وارتباطها بتغيب الإله من حيث القدرة على التصرف والصلاحيَّة، لأنَّ نتيجته تغييب الوحي والدِّين والنبوَّة، فمن هنا لا بد للباحث أنْ لا يسمح للدراسات الحداثية أو غيرها بنزع هذا التعالي، فزوال تعالي الوحي وارتباطه بالغيب زوال للقضيَّة الدِّينيّة برمتها.

2 - أنْ تكثَّف الدراسات الموضوعيّة حول نفع وجدوى الدراسات الحداثيَّة في إيجادها للحلول لبعض المشاكل كالأمن على المستوى الأخلاقيّ والروحيِّ والاجتماعيّ حول ظاهرة التغيير والتطوُّر على الصعيد التشريعيِّ في جوانبه التفصيليَّة والفرعيَّة التي يفرضها تبدُّل الحياة وحركتها وتطورها حتى لا تجعل مبرِّرًا لأصحاب النفوس الضعيفة في الوقوع في مستنقع تيارات الإلحاد.

3 - على الحواضر العلميَّة توضيح المفاهيم والأسس التي يقوم عليها الوجود والإنسان بطريقة علميَّة سلسلة تفهم من أغلب الطبقات، كمفهوم العدل وما يرتبط به، إضافة إلى تبيين سبب الاختلافات في تطبيقه بين الديانات التوحيديَّة على نحوٍ عام وبين المذاهب الإسلاميّة خاصَّة، لأنَّه في تبيينه لا يجعل حجة لبعض البشر في إلحادهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، تلبيس إبليس، دار التحرير، مصر، ط1، 1992م.
- ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ط1، 1979م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن الكريم، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2000م.
- الأزهـري، أبو منصور، معاني القراءات، مركز البحـوث في كلية الآداب في جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 1991م.
- بدوي، عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفيَّة، مكتبة الإسكندرية، مصر، ط1، 1984م.
- بدوي، عبد الرحمن، تاريخ الإلحاد في الإسـلام، المؤسسـة العربيّة للدراسـات، بيروت، ط2، 2011م.
- ج. ل. مكي، الكلام الفلسـفيّ، ترجمة: أحمد النراقي وإبراهيم السـلطاني، منشورات طه، قم، ط1، 1373ه.ش.
- جيمس، وليم، العقل والدِّين، ترجمة: حب الله محمود، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط1، 1949م.
- خان، وحيد الدِّين، الإسلام يتحدَّى مدخل علمي للإيمان، مكتبة الرسالة، القاهرة، 1966م.
- دوكينز، ريتشارد ، وهم الإله، ترجمة: بسام البغدادي، ط1، 2009م.
- ديورانت، ول، قصة الفلسفة، دار المعارف، بيروت، ط6، 1988م.
- راسل، برتراند، النظريَّة العلميَّة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015م.
- شريف، عمر، خرافة الإلحاد، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 2014م.
- الشهرستاني، محمد عبد الكريم، الملل والنحل، الشريف الرضي، قم، ط1، 1364ه ق.
- الشيرازي، محمد بن إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّةالأربعة، طليعة نور، قم، ط8، 1440ه.
- الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دار التعارف، بيروت، ط3، 2009م.
- العجيري، عبد الله صالح، ميليشيا الإ لحاد، دار تكوين، السعودية، ط1، 2014م.

- عزمي، هشام، الإلحاد للمبتدئين، دار الكاتب، مصر، ط2، 2015م.
- العميري، سلطان عبد الرحمن، ظاهرة نقد الدِّين في الفكر الغربيّ، دار تكوين، السعودية، ط2، 2018م.
- عوض، رمسيس، تاريخ الإلحاد في الغرب، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2022م.
- الفراهيدي، الخليل، العين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 2003م.
- فورث، موريس كورن، مدخل إلى المادة الجدليّة، ترجمة: محمد مستجير، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1975م.
- القحطاني، سعيد بن علي، كيفيَّة دعوة الملحدين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، مؤسسة الجريسي، الرياض، ط1، 1372ه.
- كرم، يوسف، الفلسفة الحديثة، دار المعارف، بيروت، ط5، 1986م.
- مجمع اللغة العربيّة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، 1984م.
- محمود، زكي نجيب، قصة الفلسفة الحديثة، الهنداوي، القاهرة، ط1، 2017م.
- مرحبا، عبد الرحمن، أينشتاين ونظريته النسبيَّة، الأهلية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م.
- نجيب محمود، زكي، الجبر الذاتيُّ، المشروع القوميُّ للترجمة، القاهرة، ط1، 1935م.